السخرية عند البوصيري

د. محمود سالم محمد*

الملخص

عرف البوصيري بأنَّه شاعر المدائح النبوية الأول، وبأنَّه صوفي ملتزم بتوجه الصوفية، وبدا من نبوياته رجلًا متدينًا جادًا متقطعًا عن حياة الناس معرضًا عمَّا يتهالكون عليه.

لكن البوصيري نظم في موضوعات الشعر المختلفة ومنها الهجاء والشكوى ووصف الحال. وقد أدى هذه الموضوعات بطريقة ساخرة لأنَّ السخرية مؤلمة في الهجاء، ولأنَّها تبعد الضجر عن الشكوى.

وجاءت سخريته مرة حينًا، ومرحة حينًا آخر، أعطت لشعره قبولًا عند المتلقين، وأبعدت عنه التقليد، ورفعت المستوى الفني لأدائه، وأضفت عليه شيئًا من الجدة.

* جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية.

Irony in the Poetry of Albusiri

Dr. Mahmoud Salem Mohammed[**]

Abstract

Albusiri was known as the top poet in prophet praise poems and as a committed Sufi. He seemed as a serious religious man from his prophet praise poems. The poems also revealed that he was a solitary man not living the life of ordinary people and not interested in what they were seeking. However, Albusiri wrote various poetic genres including satires, complaints and descriptions of present conditions. He wrote in an ironic tone because irony is bitter in satire and because it also keeps boredom out of such complaining poems.

His irony was bitter at times and funny at others. This made his poetry well-received by the recipients and difficult to imitate, have an increased technical level, and added a touch of seriousness.

[**] Damascus University, Faculty of Arts and Humanities, Department of Arabic Language

اشتهر البوصيري بأنه شاعر المدائح النبوية الأول في التراث الشعري العربي، وعرف بتوجهه الصوفي، فتكونت له صورة في النفوس، بدا فيها زاهدًا منقطعًا إلى العبادة، مترفعًا عن شؤون الحياة الدنيا، لا يمدح كبيرًا، ولا يتزلف إلى ملك، جادًا لا يقترب من المرح، متسامحًا لا يؤذي أحدًا.

لكن هذه الصورة ليست صحيحة، فقد مدح السلاطين والأمراء، وألح في طلب المال منهم، وشكا الفقر والغُبن، وخاض في أمور الدولة وانتقد عمالها، وهجا من انتقد شعره ومن ظن أنَّه قصّر في حقه. واستخدم السخرية في هجائه ونقده وشكواه، وقدم نفسه في هيئة مضحكة تثير الشفقة.

واتبع في سخريته طرائق مختلفة، منها الوصف والتصوير والتشبيه، ومنها القص والحوار، ومنها المبالغة والمفارقة وقلب المفاهيم، ومنها إنطاق الجماد والحيوان.

وأدى سخريته بأسلوب مغاير لشعره الديني، اتسم بالبساطة والوضوح، وبالميل إلى الشعبية في العبارات والألفاظ.

وكأنَّ البوصيري هنا غير البوصيري هناك، أو أنَّه عاش اغترابا، دفعه إلى التصوف والسخرية معًا.

ميله إلى السخرية:

أظهر البوصيري[1] في شعره وأخباره ميلًا واضحًا نحو السخرية، دفعته إليها مجموعة أسباب تتعلق به وبمجتمعه وظروف حياته. أولها تكوينه الجسدي والنفسي، فقد كان قصيرًا نحيفًا، تقتحمه العين، وأشار إلى ذلك في رده على شاعر انتقصه بقوله:[2]

ورُبّ أديب ذي لسان كمبرد ... بدا من فم كالكير أو هو كير

إذا ما رآني عافني واستقلّني ... كأني في قعر الزجاجة سور[3]

ويعجبه أني نحيف وأنّه ... سمين يسرُّ الناظرين طرير[4]

[1]– محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجي المغربي (608 . 696هـ): الوافي بالوفيات، ص: 3–105.

[2]– ديوان البوصيري: ص: 148.

[3]– سور، سؤر: بقية الشراب في الكأس.

[4]– فوات الوفيات: ص: 3/ 368.

وبُلي فوق ذلك بالشيخوخة وأمراضها، فكان كثير العلل، كثير الشكوى من انحراف صحته، وقد أقعده المرض غير مرة، ومن هنا جاءت قصة نظمه لقصيدته البردة، التي أشارت إلى علة طالت عليه، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام، يتقاضاه المديح، فلما نظمها بريء من علته[5].

وأغمي عليه مرة مدة طويلة، فأشاع الناس موته، وبعد شفائه رد عليهم بقوله:[6]

عـــاش بعـــد موتـــه البوصـــيري وحيـــاة الكـــلاب مـــوت الحميـــر

وأورثه المرض ضيق الصدر، فلم يكن يحتمل إهانة أو تقصيرًا في حقّه، فكان يطلق لسانه في كل من يضايقه، ويستخدم الهجاء والتهديد به في الطلب إلى الناس، لذلك مقتوه وتحاشوه لسلاطة لسانه. وصرح بأنه يخيف الناس بلسانه ويحتال عليهم في كسب رزقه، فقال:[7]

وأنصـــب أحيانًـــا شـــباك قناعـــة أصـــيد بهـــا نونـــا وضـــبًا وجُنـــدبا[8]

وثاني أسباب ميله إلى السخرية فقره وأسرته الكبيرة وافتقاده الانسجام مع زوجته، فلم يرزق الراحة في بيته، واتخذ أسرته وسيلة لاستدرار عطف الممدوحين، وللشكوى من سوء أحواله، فضلًا عن نشأته في أسرة فقيرة، اضطرته إلى العمل صغيرًا في أعمال لا تدر عليه ما يكفيه. ولاحظ محقق ديوانه ذلك في شعره، فقال:[9]

"وكثيرًا ما يمزج البوصيري مدائحه بالدعابة المضحكة التي تترك أثرها في النفس، ويصور حياته وما فيها من ضيق وبؤس.. ويطنب في ذلك ليستدر عطف الممدوح".

وكرر الشاعر شكواه من أسرته وعجزه عن القيام بأمرها في مدائحه، مثل قوله لممدوحه:[10]

---

[5]- وطرير: شاب طر شاربه.

[6]- ديوان البوصيري: ص: 280.

[7]- المصدر نفسه: ص: 97.

[8]- النون: الحوت أو السمك

[9]- المصدر نفسه: ص: 39.

[10]- المصدر نفسه: ص: 166.

إليـــك نشـــكو حالنـــا إننـــا عائلـــة فـــي غايـــة الكثـــره
إن شـــربوا فـــالبئر زيـــرٌ لهـــم مـــا برحـــت والشـــربة الجـــرّه[11]
لهـــم مـــن الخُبّيـــز مســـلوقة فـــي كـــل يـــوم تشـــبه النشـــره[12]
أقـــول مهمـــا اجتمعـــوا حولهـــا تنزّهـــوا فـــي المـــاء والخُضـــره
وأقبـــل العيـــد ومـــا عنـــدهم قمـــح ولا خبـــز ولا فطـــره[13]

جاءت السخرية في شكواه من المبالغة في عدد أولاده وفي احتياجاتهم، ومن اختيار نبات الخبيزة طعامًا لهم، فاكتفى بسلقه ليكون عندهم نزهة بين الماء والخضرة، وما الماء إلا ماء السلق، وما الخضرة إلا نبات الخبيزة المسلوق.

ووصف أولاده في مدحة أخرى، فقال:[14]

وكزغـــب القطـــا ورائـــي فِـــراخ مـــن إنـــاث أعـــولهم وذكـــور
يتعـــاوون كالـــذئاب وينقضّـــ ـــون مـــن فـــرط جـــوعهم كالنســـور

أتت السخرية في هذا الوصف من التناقض بين صغر الأولاد وضعفهم في البيت الأول، وشدتهم في طلب الطعام في البيت الثاني. فأين الفراخ الصغيرة الضعيفة من الذئاب والنسور؟

وصب نقمته من سوء حاله في بيته على زوجته الولود، فقال:[15]

وبليتـــي عِـــرسٌ بُليـــت بمقتهـــا والبغـــل ممقـــوت بغيـــر قيـــام
بلغـت مـن الكِبَـر العِتـيَّ ونُكِّسـت فـي الخلـق وهـي صـبيّة الأرحـام

[11] الزير: الدن، ويطلق على وعاء كبير من الفخار.
[12] الخبيزة: نبات أخضر، تطبخ أوراقه. والنشرة: نشرت الأرض: أصابها الربيع فأنبتت، والنشرة: النسيم.
[13] الفطرة: زكاة الفطر.
[14] ديوان البوصيري: ص: 156.
[15] المصدر نفسه: ص: 254.

إن زُرتهـا فـي العـام يومـا أنتجـت وأتـت لسـتة أشـهر بغُـلام
أوهـذه الأولاد جـاءت كلّهـا مـن فعـل شـيخ لـيس بـالقوّام
وأظـن أنهـم لِعُظـم بليّتـي حملت بهم . لا شك . في الأحلام

سخر البوصيري من نفسه ومن زوجته وأولاده في هذه الشكوى. فوصف نفسه بالبغل، وأشار إلى أنه عاجز جنسيًا، ووصف زوجته بأنها طاعنة في السن وقبيحة، لكنها ظلت ولودًا. وبلغت سخريته مداها حين جعل الزوجة العجوز تلد كل ستة أشهر، وأنها حملت بأولادها في الأحلام. فهو يقلب الحقائق، ويتنصل من مسؤوليته في كثرة الأولاد ليرسم البسمة على شفتي ممدوحه، وإن أساء لنفسه ولزوجته، فلم يخشَ التلميح إلى علاقته الحميمة مع زوجته، بل صرح بها في قوله:[16]

مَـن لشـيخ ذي علّـة وعيـال ثقّلـت ظهـره بغيـر ظهيـر
وعتـت أُمّهـم علـيّ ولجّـت فـي عتـوّ مـن كَبْرتـي ونفـور
حسِـبَت عِلّتـي تـزول، فقالـت: يـا كثيـر التهـوين والتهـوير[17]
كـل داء لـه دواء، فعجّـل بمـداواة داء عضـو خطيـر
قلـت: مهـلا فمـا بلحـم السـقنقو ر أُ داوى ولا بملـح الـذَرور[18]
سـقطت قـوّة المـريض التـي كـا نـت قـديما تُـزاد بالكـافور

هل يسلي ممدوحه بهذا الحديث الذي يكشف علاقته بزوجته؟ أو أنه يقدم حقيقة هذه العلاقة ليخفف عن نفسه معاناته معها؟ ثم ما هذا الحوار الذي يظهر رغبة الزوجة

[16] المصدر نفسه: ص: 155.
[17] التهوير: الغش.
[18] السقنقور: من الزواحف الصغيرة، الذرور: ما يذر من الدواء.

المشروعة، وإن بدا جارحًا لها؟ إنه يسخر من نفسه لينتقم من واقعه إذا كان كلامه صحيحًا، وليس ادعاء، يصطاد به جائزة الممدوح وعطاءه.

وثالث الأسباب لميله إلى السخرية علاقاته مع أهل الدولة وأهل الأدب، فقد حاول العمل في الدولة، وعرضت عليه أعمال رفضها، وشغل أعمالًا من غير مؤهلات كافية، وسلط لسانه على الناس، فحاولوا التخلص منه، فهجاهم بسخرية قارصة، لأنَّ الهجاء بغيرها لا يليق بشاعر المدائح النبوية المتصوف، ويسقطه بين الناس.

عمل البوصيري في صباه كاتبًا لشواهد القبور، وافتتح كتابا لتعليم الصبيان، واشتغل كاتبًا حاسبًا، وعرضت عيه وظيفة الحسبة، فاعتذر عنها، وهجّنها في قصيدة، صور فيها عمل المحتسب تصويرًا ساخرًا، فقال:[19]

لا تظلمـــوني وتظلمـــوا الحِســـبه فلـــيس بينـــي وبينهـــا نِســـبه

أجلـــس والنـــاس يهرعـــون إلـــى فعلـــي فـــي الســـوق عُصـــبة عصـــبه

أوجـــع زيـــدا ضـــربا وأشـــتمه ســـبًّا كـــأني مُـــرقّص الدُبّـــه

لـــم أر فـــي قُـــبح فعلهـــا حســـنا كالكلـــب فـــي الســـوق يُلقـــح الكلبـــه

رسم الشاعر مشهدًا حركيًا، فيه وصف قائم على التشبيه المفضي إلى التهجين والتقبيح. فتشبيه عمل المحتسب بترقيص الدبة وتلقيح الكلب للكلبة يجعل العمل مستهجنًا قبيحًا، وكأنه يعرّض بالمحتسب القائم بالحسبة ولا يعتذر عن العمل فيها. فالاعتذار لا يحتاج إلى هذه السخرية الجارحة، ولا إلى هذا التهجين لوظيفة دينية اجتماعية.

وكان يعتقد أن إهداءه شيئًا، أو مصانعته لاتقاء شر لسانه، أصبح أمرًا ثابتًا واجبًا، وأي إخلال به يستوجب العقاب والهجاء. فعندما أهملته فئة من الكُتاب في مناسبة، وأهدته فئة أخرى، قال:[20]

أمـــا تـــرى البغـــل وهـــو بغـــل فـــي فضـــله يفضـــل الحمـــارا

[19]– ديوان البوصيري: ص: 99.

[20]– المصدر نفسه: ص: 168.

فهجا بذلك الفئة المهملة والفئة المحسنة، لأن وصف الرجل بالبغل لا يقل سوءًا عن وصفه بالحمار، وإن فضل الحيوان الأول على الحيوان الثاني.

وعندما عانده رجل مغربي في الشعر، تساءل ساخرًا:[21]

فقُــلْ لنـــا مَـــن ذا الأديـــب الـــذي زاد بـــــه حُبّـــــي ووسواســـــي

إن كـــان مثلـــي مغربيـــا فمـــا فـــي صُـــحبة الأجنـــاس مـــن بـــاس

وإن يكـــــذّب نســـــبتي جئتـــــه بجُبّتـــــي الصـــــوف ودِفّاســـــي[22]

وهكذا كانت علاقاته بالناس تهديدًا ووعيدًا، وهجاءً ونقدًا، وسخرية جارحة، تنم على شراسة في الخلق، لا تتوافق مع متصوف كان شاعر المدائح النبوية الأول. فعندما انتقد الشاعر ابن الرعاد[23] بعض شعره، رد عليه بقوله:[24]

لقـد عـاب شـعري فـي البَرِيّـة شـاعر ومَـن عـاب أشـعاري فـلا بـدَّ أن يُهجـى

وشـــعري بحـــر لا يوافيـــه ضـــفدع ولا يقطـــع الرعّـــاد يومـــا لـــه لُجّـــا

وصف البوصيري الشاعر ابن الرعاد بالضفدع ليهون شأنه ويسخر منه، وأفاد من لقبه في تعميق هذه السخرية، مشيرًا إلى ارتعاده وخوفه، فرد نقده ردًا عنيفًا لا يتوافق مع النقد الشعري.

موضوعات سخريته:

تنوعت موضوعات سخريته، فشملت الهجاء والنقد، والشكوى من الفقر، وذكر الزوجة والأولاد، وذكر الطعام والحيوان مثل قوله في طلب حلوى الكنافة إلى قاض، يدعى عماد الدين:[25]

---

[21] المصدر نفسه: ص: 174.

[22] لم يتضح معنى دفاس، ربما كانت لفظة مغربية تعني الحذاء ولم ترد في المعاجم.

[23] الرعاد: محمد بن رضوان بن إبراهيم الخياط، توفي على رأس السبع مئة. الدرر الكامنة، ص: 3/ 268.

[24] فوات الوفيات: ص: 3/ 367.

[25] ديوان البوصيري: ص: 174.

مـــا أكلنـــا فـــي ذا الصـــيام كنافـــه آه وابُعـــــدها علـــــيَّ مســـــافه
قـــــال قـــــوم: إن العمـــــاد كـــــريمٌ قلـــت: هـــذا مـــنكم حـــديث خرافـــه
أنـــا ضـــيف لـــه، وقـــد مُـــتّ جوعـــا ليـــت شـــعري لِـــمْ لا تُعـــدّ الضـــيافه

استخدم البوصيري الهجاء في الطلب، وهذا أمر مستغرب، لأن الطلب يكون بالمدح والتذلل، وليس بالتعريض والسخرية، فوصف كرم القاضي بحديث خرافة، ونفى عنه أي احتمال للكرم، وربما وجد البوصيري أن الهجاء والتهديد به أجدى من المدح الذي قل العطاء عليه، ولكن المستهجن في حديث البوصيري هو اشتهاؤه لحلوى الكنافة والتأوه لبعدها عنه، فظهر بمظهر العاشق لها، ولم يأبه لجرح كرامته، فكيف يشتهي شاعر كبير كالبوصيري الحلوى بهذه الطريقة؟ ربما ذكرها ليسخر من القاضي، وليحثه على تقديمها له.

ومثل ذلك قوله لوزير في حق القاضي نفسه:[26]

إن العمـــــــــــاد أرانـــــــــــا بأنـــــــه اليـــــوم صـــــــائمْ
ولـــــــيس يرجـــــو ثوابـــــا ولا يخـــــــــاف مـــــــــآثم
ولـــــــيس يخفـــــى عليـــــه أن لا صـــــــــيام لظـــــــالم
وصـــــــومنا فـــــي اتبـــــاع لـــــــه صـــــــيام البهـــــائم
فخُـــــذْ لنـــــا اليـــــوم منـــــه غـــــــذاءنا وهـــــو راغـــــم

طمع البوصيري بحضور مأدبة القاضي الذي اعتذر بصيامه، فقدم الشاعر شكوى للوزير، عرّض فيها بالقاضي تعريضًا شديدًا، واتهمه بالرياء والظلم، وسخر من نافلته وورعه الظاهر، فآذاه من غير سبب يستحق عليه الأذى، فحديث الطعام عنده يفضي دومًا إلى الهجاء.

ومن شكواه الدالة على فقره والمتعلقة بالطعام قوله:[27]

[26]– المصدر نفسه: ص: 256.

[27]– ديوان البوصيري: ص: 277.

جئـــت إلـــى الطبيـــب مشـــتكيا ودمعتـــي كـــالعوارض الهَتِنَـــه

فقـال: عُـدْ لـي إذا احتميـتَ وكُـلْ فـي كـل يـوم دجاجـة دَهِنَـه

كيـف وصـولي إلـى الدجاجـة والبيـ ـضةُ عنـدي كأنهـا بَدِنَـه[28]

إن ضعف قدرته على شراء طعام الحمية دال على فقره، وعد البيضة عنده بدنة سخرية من حاله، فالمبالغة في تقرير الأشياء البسيطة تؤدي إلى شيء من السخرية، لأنها تخرق المألوف بين الناس.

أمَّا ذكره للحيوان فكثير في شعره، اتخذه وسيلة للدلالة على فقره، ولانتقاص خصومه، ولإضحاك متلقيه. ومن ذلك قوله من قصيدة يعرض فيها برجل يدعى ابن عمارة:[29]

مـا لـه ميـزة علـيّ سـوى أنّ (م) لـه بغلـة ومـا لـي حمـاره

فجعل امتلاك حيوان الركوب مقياسًا للتفاضل بين الناس، وبهذا المقياس حط من قيمة الرجل، ودل على فقره. وهو دائم المقارنة بين البغال والحمير، لأنَّ البغال كانت مركوب أهل الفضل والغنى، وكانت الحمير مركوب الشعراء الفقراء.

ونظم البوصيري عدة قصائد في مهاجمة عمال الدولة ونقد أعمالهم، وقد خبرهم في أثناء عمله معهم، ونقم عليهم لأنهم أخرجوه من عمله بسبب افتقاره إلى المهارات اللازمة للحساب والكتابة. وقد اتخذ السخرية وسيلة في نقده لهم مثل قوله:[30]

لـو كنـت أملـك أمـرهم مـن غيرتـي لـم أُبـق للمسـتخدمين ضروسـا

يرعـون أمـوال الرعيـة بـالأذى لـو يُحلبـون لأشـبهوا الجاموسـا

يحتاج خيال المتلقي إلى تحليق ونشاط كبير ليتصور المستخدمين من غير أسنان تساعدهم على أكل أموال الناس، أو وهم يحلبون مثل الجاموس، وقد أفاد الشاعر من

[28]- البدنة من الإبل والبقر: الأضحية.

[29]- ديوان البوصيري: ص: 131.

[30]- المصدر نفسه: ص: 172.

كلمة (يرعون) التي تعني رعي الماشية في الحقل وأكلها للعشب، وتعني رعاية الشيء وحفظه وصونه. وهذه الهيئة التي رسمها البوصيري للمستخدمين مزرية ومضحكة معًا.

وانتقل البوصيري في نقد المستخدمين إلى مجال آخر، حين وصف علاقة فئة منهم بفئة أخرى، فقال:[31]

إن خُلـــــق الشـــــهود والعمـــــال مثـــل خُلـــق العُشـــاق والعُـــذّال[32]

كـــل عَـــذْلٍ مضـــايقٌ فـــي وصـــول كعـــذولٍ مُضـــايقٍ فـــي وصـــال

لســت أدري معنــى التبــاغض مــا بيــ ـــن الفـــريقين غيـــر حُـــبّ المـــال

أبدع الشاعر في تشبيه خلق المستخدمين، وفي بيان التنافس بين الشهود والعمال حين انتقل به من التنافس والحسد في العمل إلى مشاهد المحبين والعذال، كل منهم يحرص على حرمان الآخر من السرقة. ولم تكن العفة والأمانه وراء هذه المنافسة، وإنَّما الحرص على أن تكون سرقة الأموال من نصيبه. وفي هذا التشبيه سخرية واضحة، وصل إليها البوصيري بهذا التشبيه الغريب المستمد من معرفته لشعر الغزل.

طرائق أداء السخرية:

اتبع البوصيري طرائق مختلفة في أداء سخريته. أولاها الوصف والتصوير والتشبيه، فكان يرسم مشاهد ساخرة من نفسه ومن مهجويه، كما فعل عندما صور نفسه في عمل الحسبة، ثم صور المحتسب القائم بعمله فقال:[33]

ومـــــا يـــــزال الغـــــلام يتبعـــــه بـــــدُرّة مثـــــل رأســـــه صُـــــلْبه

وهـــو يقـــول: افســـحوا لمحتســـب قـــد جـــاءكم مـــن دمشـــق فـــي عُلْبـــه

فطـــــــار برغوثـــــــه لِخفّتـــــــه ورام يحكـــي الأســـود فـــي الوثبـــه

[31]– المصدر نفسه: ص: 236.

[32]– الشهود: جمع شاهد وهو من يجلس في المحاكم ليقرب الدعوى من الحكم الشرعي، ويقرب عمله من عمل المحامي هذه الأيام.

[33]– ديوان البوصيري: ص: 100.

أغرقـــه جهلـــه ومـــا سُـــترِت قـــط لـــه سُـــرّة ولا رُكْبـــه

وعـــاد تمويهُـــه عليـــه وكـــم أُخجـل شـيبُ الـذقون مِـن خَضْـبه

وسـاءني مـا جـرى عليـه مـن النّسْـ ـــوة يـــوم الخمـــيس فـــي التُّربـــه

فـــلا تســـلني فمـــا حضـــرتُ لهـــا لكـــن ســـمعت الصّـــياح والندبـــه

تقوم قصيدة الاعتذار عن قبول عمل الحسبة على وصف ساخر لما يراه من عمل المحتسب، ولما يتخيله في حال مباشرته لهذا العمل. والوصفان، الحقيقي والمتخيل، يفضيان إلى تهجين هذا العمل أو طريقة أدائه في أيامه. فتخيل جلوسه في السوق، والناس يهرعون إليه، فيضرب هذا، ويشتم هذا، وشبه عمله بعمل مرقص الدبة، وهو تشبيه ساخر يحط من عمل الحسبة.

ووصف موكب المحتسب القائم بعمله وهو يمشي في السوق، يحيط به الصغار، ويتبعه غلام غبي، يفسح له الطريق، ويضرب الناس بدرته الصلبة. وهذا المشهد الساخر هجاء واضح للمحتسب المستقدم من دمشق في علبة. ولم يكتف الشاعر بهذا الوصف المزري للمحتسب، فالتفت إلى ذكر مثالبه المتعلقة بشخصه وبعمله، فوصفه بالجهل وبالتظاهر بخلاف ما هو عليه، وشبهه بالبرغوث الذي يريد محاكاة الأسد في وثبته، وشتان بين الأسود والبراغيث في الشأن والأثر. وأبدع الشاعر في الجمع بين الغرق المعنوي في الجهل والغرق المادي في الماء، فظلت سرة المحتسب وركبته ظاهرتين مثلما ظل جهله ظاهرًا، وكذلك في المثل الذي ضربه عن الخضاب المنحسر عن اللحية والمظهر لحقيقتها. وهذا كله وصف ساخر أقامه على التشبيهات المهجنة والأمثال الكاشفة للحقيقة.

واختتم البوصيري وصفه الساخر بحكاية مجملة عن واقعة جرت للمحتسب مع نسوة في المقبرة، كثر فيها الصياح والندبة. وربما أراد المحتسب صد النسوة عن زيارة المقبرة، فلقي منهن ما يحط من قيمته ويسقط هيبته.

أراد البوصيري الاعتذار عن قبول عمل الحسبة بتهجين صاحبها، فعمد إلى التصوير الساخر الذي يضحك الناس من المحتسب ويسقطه ويؤذيه، فقدم نصًا شعريًا ممتعًا

ومفيدًا. جاء الإمتاع من الطريقة التي أدى بها مراده، وهي الوصف الساخر والتشبيه المهجن والسرد الموحي. وجاءت الفائدة من تقديم معلومات عن الحسبة في أيامه وطريقة القيام بأعمالها.

واعتمد البوصيري على التشبيه في أداء سخريته، فأقام علاقات بين أشياء متباعدة للتقبيح والازدراء والتهوين قبل الإيضاح والتبين. فتشبيه المحتسب بالبرغوث ازدراء وتهوين لشأنه، ووصف عمل الحسبة بالكلب يلقح الكلبة في السوق تحقير لعمل الحسبة ما بعده تحقير، وكذلك تشبيه الدهر في قوله:[34]

والدهر يرفع أطرافا كما رفعت أذنابها لقضاء الحاجة البقر

يرتفع بعض الناس إلى مكانة عالية لا يستحقونها، ويصلون إليها بطرائق ملتوية وفي غفلة من المجتمع، وهذا يغيظ أهل الفضل، فيصبون نقمتهم على الزمان، ومنهم البوصيري الذي شبه الأطراف أو الجهلة الذين رفعهم الدهر بأذناب البقر المرفوعة عند قضاء الحاجة، فرسم بهذا التشبيه منظرًا مقززًا، فيه تهوين شديد واحتقار لهؤلاء الجهلة، وسخرية شديدة منهم.

وعرض في قصيد له برجل قربه ممدوحه، فشبه هذا التقريب بقوله:[35]

وابن عمران وهو شرّ متاعٍ للورى في بطانة وظهاره

حسّن القرب منكم قبح ذكرا هـ كتحسين المسك ذكرًا لفاره

بحث البوصيري عن طريقة يشيد فيها بالممدوح ويهجو ابن عمران، فاهتدى إلى هذا التشبيه الغريب الذي يرفع الطرف الأول ويحط الطرف الثاني. وتبادر إلى ذهنه فأرة المسك، فحول معنى فأرة من الوعاء إلى القارض المقزز، فقد حسنت إضافة المسك إلى الفأرة ذكرها، وكذلك تقريب الممدوح لهذا الرجل، وفي ذلك تشبيه للممدوح بالمسك وتشبيه لابن عمران بالفأر، وهذه سخرية مؤلمة.

[34]– ديوان البوصيري: ص: 141.

[35]– المصدر نفسه: ص: 131.

وافتن في قصيدته التي هاجم فيها المستخدمين في اقتناص التشبيهات الساخرة المعبرة، فبعد أن شبههم بالجاموس الذي يدر الحليب لكثرة ما أكلوه من أموال الناس، عاد وشبههم بالسوس في قوله:[36]

الله أرسلهم على أقواتهم سوسًا وقد أمنوا عليها السوسا

يكفي تشبيه المستخدمين بالسوس احتقارًا لهم، فضلًا عن السخرية من قرنهم بحشرة حقيرة مؤذية فقد أفاد البوصيري من التشبيه كثيرًا، وكان عونًا له في السخرية الواخزة المؤلمة.

واتبع البوصيري طريقة القص والحوار في أداء سخريته، فكان يروي لممدوحه وقائع مضحكة جرت معه، وينقل في هذه الرواية حوار أبطال القصة، وغالبًا ما يأتي الحوار ساخرًا في مضمونه وأسلوبه، مثل قوله:[37]

ويوم زارت أمهم أختها والأخت في الغيرة كالضُّرة
وأقبلت تشكو لها حالها وصبرها معي على العُسره
قالت لها: كيف تكون النِّسا كذا مع الأزواج يا غِرّه
قومي اطلبي حقّك منه بلا تخلّف منك ولا فتره
وإن تأبّى فخُذي ذقنه ثم انتفيها شعرة شعره
قالت لها: ما عادتي هكذا فإن زوجي عنده ضجره
أخاف إن كلّمته كلمة طلّقني، قالت لها: بعره
فهوّنت قدري في نفسها فجاءت الزوجة مُحتَرّه
فاستقبلتني فهدّدتها فاستقبلت رأسي بآجُرّه
وباتت الفتنة ما بيننا من أوّل الليل إلى بُكره

[36]- المصدر نفسه: ص: 172.
[37]- المصدر نفسه: ص: 167.

هذه قصة شعرية، فيها الأحداث والحبكة، وفيها الأبطال والحوار، وفيها الزمان والمكان، وفيها الغاية المرادة من سردها، وهي إظهار فقره واستدرار عطف ممدوحه، لكنه وصل إلى هذه الغاية بالفكاهة والسخرية من نفسه، فأدخل البهجة على نفس ممدوحه على الرغم من أنه يشكو سوء حاله ونكده في بيته.

وأوضح الحوار الموقف، وزاده سخرية، وخاصة حديث الزوجة مع أختها، وعمقت الألفاظ المستخدمة في الحوار السخرية، مثل (انتفي ذقنه) و(بعره) و(آجره).

وأنطق في قصصه وحواراته الجماد والحيوان، ليعطي للسخرية واقعية مفترضة، مثل قوله على لسان مسجد:[38]

ليت شعري ما مقتضى حرماني دون غيري والإلفُ للرحمن

أتُراني لا أستحق لكوني جامعا شمل قارئي القرآن

أم لكوني في إثر كل صلاة بي يُدعى لدولة السلطان

وبأي الأسباب يُعطى مكان صدقات السلطان دون مكان

آه واضيعة المساكين إن وُلّي أمر الطعام في رمضان

إن إدراج الشكوى على لسان المسجد أبلغ وأشد تأثيرًا في المتلقي. واستخدام السخرية في حديث المسجد يُبعد الشكوى عن الضجر، ويكسبها طرافة، وخاصة في هذا الجدل المؤدى بالتساؤل الإنكاري، والمنتهي بالتأوه والتوجع للخوف من أن يتولى صاحب صدقات المساجد طعام المساكين في رمضان، لأنَّه عندها سيميتهم جوعًا، فالسرقة طبع عنده. وبهذا الحديث الساخر للمسجد نال البوصيري من صاحب صدقات المساجد، وأظهره بمظهر المخالف للشرع.

وروى في القصيدة التي عرّض فيها بابن عمار قصة بغلته التي أوقعته، وأنطقها بهجائه، فقال:[39]

[38]– ديوان البوصيري: ص: 260.

[39]– المصدر نفسه: ص: 132.

قالـــت البغلـــة التـــي أوقعتـــه أنـــا مـــالي علـــى الغبـــون مـــراره[40]

إن هـــذا شـــيخ لـــه بجواريـــ ـــه مـــع النـــاس كـــل يـــوم صِـــهاره

قلـــت: مـــا تكـــرهين منـــه؟ فقالـــت: أي بُخـــل فيـــه وأي قتـــاره[41]

أنـــا فـــي البيـــت أشـــتهي كـــفّ تـــبن ومـــن القَـــرط أشـــتهي نُـــوّاره[42]

لا تلومـــوا إذا وقعـــت مـــن الجـــو ع فـــإني مـــن الخـــوى خـــوّاره[43]

عيّرتنـــي بهـــا بغـــال الطواحيـــ ـــن وقالـــت: تمّـــت عليـــكِ العيـــاره

أنطق البوصيري البغلة بهجاء الرجل والسخرية منه، وقدمها بصورة إحدى نسائه، وأقام معها حوارًا يكشف بخل الرجل ومثالبه. وجمع في قصيدته بين حاجات البشر وطبائعهم وحاجات الحيوانات وطبائعها، واستخدم طرائق التعبير الشعبي والعبارات المفصحة التي يستخدمها العامة، وقد خففت السخرية من وقع الهجاء الفاحش الذي أجراه على لسان البغلة، واتهمه فيه بفساد دينه وعرضه. وجاء حديث البغلة من حديث البشر، فأضفى عليها الوعي والمعرفة، وأنطقها بما يريد، ومن هنا جاءت المفارقة وجاءت السخرية التي تبعث على الابتسام، فقد تصبح هذه القصيدة حديث الناس، يواجهون بها الرجل كلما شاهدوه.

واستخدم هذه الطريقة في السخرية من نفسه، حين أعار أتانه لأمير فاحتفظ الأمير بها، وأرسل ثمنها إلى البوصيري، لكن الشاعر لم يعجبه هذا الأمر، فنظم على لسان أتانه قوله:[44]

---

[40]- تخطف الف (أنا) لتصبح فتحة فيستقيم الوزن

[41]- قتاره: من قتّر: اقتصد وبخل.

[42]- القرط: النبات الأخضر، نواره: زهره، أو ما نضج من النبات.

[43]- الخوى: الخلو من الطعام، خوّارة: ضعيفة

[44]- ديوان البوصيري: ص: 237.

يـــا أيهـــا الســـيد الـــذي شـــهدت ألفاظـــه لـــي بأنـــه فاضِـــلْ
ألـــم أكـــن قـــد أُخـــذت عاريـــة مـــن شـــرطها أن تُـــردّ فـــي العاجـــل
مـــا كـــان مثلـــي يُعيـــره أحـــد قـــط ولكـــن ســـيدي جاهـــل
لـــو جـــرّ ســـوه علـــيّ مـــن سَـــفَه لقلـــت غيظـــا عليـــه: يســـتاهل[45]
وبعـــد هـــذا فمـــا يحـــلُّ لكـــم مِلكـــي فـــإني مـــن ســـيّدي حامـــل

أفاد البوصيري من ثقافته الفقهية في هذا الجدل الذي أجراه على لسان أتانه، وجعلها جارية حاملًا من سيدها، فأعطى السخرية مداها، وقدّم لممدوحه ما يطرفه ويسرّه، وإن انتقص نفسه، فأعاد الأمير الأتان وترك له ثمنها، وفضلًا عن ذلك أتت السخرية من المفارقة بين الحديث المثقف وقائله.

والمفارقة بين المتقارنين وسيلة أخرى من وسائل السخرية عند البوصيري، فبين الكلام وصاحبه مفارقة، وبين مكانة الشاعر وما يقدمه عن نفسه مفارقة، وبين صفة المهجو الدينية وسلوكه مفارقة، وبين المفترض بالمستخدم وواقع عمله مفارقة، مثل قوله من قصيدته في هجاء المستخدمين:[46]

وقـــد طلعـــت لبعضـــهم ذقـــون ولكـــن بعـــدما نتفـــوا ذقونـــا

إن المفارقة بين طلوع لحى ونتف أخرى تقود إلى تصور ساخر، وكأن المستخدمين ينتفون لحى الناس ويضعونها على ذقونهم. والأمر كله إشارة إلى أن المستخدمين يعيشون في بحبوحة، لأنهم سلبوا الناس مصادر عيشهم.

ووصل بالمفارقة إلى منتهاها عندما قال حين حلق أمير نصف لحية بعض الرجال:[47]

[45]– التجريس: عقوبة يظهر فيها المعاقب بهيئة مزرية.
[46]– ديوان البوصيري: ص: 266.
[47]– المصدر نفسه: ص: 175.

ثـــم قـــالوا عـــن ذقـــون حُلِقـــت قلـــت: لابُـــدَّ لهـــا أن تُخلفـــا

إن حلـــق الـــذقن خيـــر للفتـــى يـــا بنـــي الأعمـــام مـــن أن تُنتفـــا

والـــذي حلـــق أنصـــاف اللحـــى كـــان فـــي الأحكـــام عـــدلا منصـــفا

حلـــق النصـــف بـــذنب حاضـــر وعفـــا بالنصـــف عمّـــا ســـلفا

وقد علق محقق الديوان على هذه الأبيات بقوله:[48]

(فانظر إلى هذه السخرية التي أصاب بها الشاعر الحاكم، فجعله عادلًا، لأنه لم يأمر بحلق اللحية كلها. وهذا إمعان في التنكيل.. فما كان من البوصيري إلَّا أن قلب القضية، فجعل الإفراط في الظلم منتهى العدل، والقسوة رحمة والإساءة إحسانًا. ولهذا النوع من السخرية وقع عظيم في النفس...).

فقد اتبع البوصيري مغالطة واضحة في سخريته، وإن أقامها على حقائق في البداية، فما يُحلق من الشعر سيخلف وينبت مرة أخرى، والحلق خير من النتف الذي لا يخلف، لكن حلق نصف الذقن إهانة شديدة، حاول الشاعر تهوينها وتسويغها، فأضحك الناس من المعاقبين، وكان الأولى أن يرثي لهم.

أسلوبه في السخرية:

يلاحظ بوضوح أن أسلوب البوصيري في سخريته يختلف عن أسلوبه في مدائحه النبوية وشعره الديني، فاتسم شعره هناك بالجزالة والفخامة والقوة ومضارعة القدماء في ألفاظهم وتراكيبهم مع شيء من الإغراب في وصف مشاهد الحجاز مع استخدام الألفاظ والمصطلحات الدينية، والميل إلى الألفاظ الطنانة التي تجعل القصائد ملائمة للإنشاد. لكننا نجد أسلوبه في قصائد السخرية بسيطا واضحا، يقترب من كلام العامة، ويخف إيقاعه لكثرة السرد والحوار فيه، مثل قوله:[49]

قالـــت لهـــا: كيـــف تكـــون النّســـا كـــذا مـــع الأزواج يـــا غِـــرّة

قالـــت لهـــا: مـــا عـــادتي هكـــذا فـــإن زوجـــي عنـــده ضـــجرة

[48]- ديوان البوصيري: ص: 44.

[49]- المصدر نفسه: ص: 167.

ومال في شعره الساخر نحو الشعبية في العبارات والألفاظ، ولم يتحرّج من ذكر الألفاظ السخيفة، وكأن السخرية في عصره لا تتم إلا بالأسلوب الشعبي المبسط، لأن عناصرها مستمدة من البيئة، سواء في ذلك المعاني أو الصور التي ينقلها الشاعر بألفاظها مع تقريبها من الفصحى، فيشعر المتلقي أنه يستمع في حواره إلى اثنين من عامة الناس، مثل قوله:[50]

أبت النفس أن تُطيع وقالت: إن حبي لا يدخل القنينة

قالت: اضربْ عن وصل مثلي صفحا واضرب الخلّ أو يصير طحينة

فكلمة قنينة (قارورة) كلمة شعبية جارية على ألسنة الناس، وكذلك عبارة (يدخل القنينة) والمثل الشعبي (اضرب الخل أو يصير طحينة) من العبارات الشعبية المتداولة، وكلتا العبارتين تعنيان الاستحالة.

وكثير من ألفاظ شعره الساخر وقوافيه مستمدة من حديث الناس، مثل (كلبة، رُكبة، علبه، التربة، حماره). وربما طوع اللفظة لمقتضى القافية، ليأتي التعبير شعبيا، مثل قوله على لسان بغلته:[51]

عيّرتني بها بغال الطواحين وقالت: تمّت عليك العياره

ومع قلة ألفاظ السخف في شعره، إلّا أنّها أساءت إليه، مثل دعائه للطبيب بقوله:[52]

جزاك ربي إذا انسهلت بما شربت عن كل خريه حسنه

فالبساطة والميل إلى الشعبية سمة واضحة في شعر البوصيري الساخر.

إن السخرية في شعر البوصيري تنسجم مع واقعه، وإن كانت مستغربة من شاعر المدائح النبوية الأول في الشعر العربي، وكأن البوصيري هنا غير البوصيري هناك، أو أنه كان يعاني ازدواج الشخصية، نراه شيخًا متصوفًا في قسم من شعره، ونراه هازئًا

[50]– المصدر نفسه: ص: 276.

[51]– ديوان البوصيري: ص: 133.

[52]– المصدر نفسه: ص: 277.

ساخرًا في قسم آخر. وربما عاد هذا الازدواج إلى أنه أخفق في أعماله لفقده الانسجام مع الناس، وأخفق في تصوفه لأنَّ طبيعة نفسه لا تحتمل تجهم التصوف، ولا تتفق روح الدعابة عنده مع الالتزام الديني الشديد، ولا يمكن لشاعر هجاء سليط اللسان كثير الطلب أن يكون متصوفًا مستغرقًا في التصوف مع أن شعره الديني ينطلق من منطلق التصوف.

وكأن الشاعر كان يعاني شيئًا من الاغتراب لإخفاقه في إقامة علاقات سوية مع الناس من حوله، فدفعه هذا الشعور إلى التصوف والسخرية معًا. التصوف يعبر عن نكوصه عن مواجهة مشكلاته وعجزه عن تحقيق مآربه، والسخرية تعبر عن رغبته في الانتقام من مجتمعه وممن آذاه فيه.

المصادر والمراجع:

1. ديوان البوصيري: تحقيق محمد سيد كيلاني، ط2، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة 1973م.

2. الدرر الكامنة: لابن حجر العسقلاني، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.

3. شفاء الغليل: للخفاجي، تصحيح: محمد عبد المنعم الخفاجي، ط1، مكتبة القاهرة، 1952م.

4. فوات الوفيات: لابن شاكر الكتبي، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

5. المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي: محمود سالم محمد، ط1، دار الفكر، دمشق، 1996م.

6. معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي: محمد دهمان، ط1، دار الفكر، دمشق، 1990م.

7. المنهل الصافي: لابن تغري بردي، تحقيق: أحمد نجاتي، ط1، دار الكتاب، القاهرة.

8. الوافي بالوفيات: للصفدي، تحقيق: مجموعة المعهد الألماني للدراسات الشرقية، بيروت.